

## مذكرات الأستاذ محمد الميالي

انتهينا في الحلقة السابقة إلى ما قالته قيادة جمعية العلماء إلى لجنة التحقيق البرلمانية التي زارت الجزائر كي تجس نبض قيادات أهم التيارات السياسية الجزائرية المعتدلة. وشاهدنا كيف برز الخلاف بين الطيب العقبي وسائر أعضاء القيادة.

♦ بقلم محمد الميالي ♦ المعلقة المئة والواحدة والعشرون ♦

## إبن باديس يهدد

بعضهم من بعض. لكن قوما من الأتانيين الذين يأبون إلا أن يكونوا سادة متفوقين، وإلا أن يشعروا المسلمين بسطلة الغالبين على المغلوبين، هؤلاء القوم - وليسوا كل الفرنسيين - أزدادوا في هذه الأيام أن يقبضوا احتفالات عسكرية بدخلة قسنطينة، تثير الؤاطف، وتمس كرامة الأحياء منّا والأموات وتنافي مبادئ الأخوة والرحمة التي ندعو إليها.

يحتفلون احتفالاتهم ومطالب الشعب الجزائري بعرفلتهم معطلة، وحقوقه بسبعهم مهمله وسوط القوانين الاستثنائية نازل بيدهم على ظهره في كل يوم. لهذا فقد اجتمعت 14 جمعية إسلامية من جمعيات قسنطينة يوم السبت 18 سبتمبر الماضي في نادي الاتحاد وكانت كلها مستنكرة لهذه الاحتفالات عازمة على مقاطعتها فقررت - بالإجماع مايلي:

نحن - الممثلين لجمعياتنا - نرى احتراماً لأفضنا واحتراماً لأجدادنا واحتراماً للإنسانية:

أولاً: أن لا نشارك في هذه الاحتفالات ولا نحضرها.

ثانياً: أن نكون في هدوء تام.

إخواني القسنطينيين!

قد فعل المؤتمر الإسلامي الجزائري واجبه فاحتج على هذه الاحتفالات في اجتماعه العام الأخير وقدم مكتبته ذلك الاحتجاج إلى الوالي العام وقدمه مكتب لجنة قسنطينة إلى مير قسنطينة، (أي رئيس بلديتها) وفضلت الجمعيات الإسلامية القسنطينية واجبها بما قررت في قرارها المتقدم. وأخوكم هذا - قسنطينيين - فعل واجبه بنشر هذا المنشور عليكم، فما بقي إلا أن تقوموا أنتم بواجبكم.

فقاطعوا هذه الاحتفالات ولا تشاركوا فيها.

كونوا في هدوء وسلام والسلام عليكم من أخيكم.

عبد الحميد بن باديس

بيد من الأحداث التي شهدتها الجزائر في هذه الفترة، انطلاقاً من مقتل المفتي إلى الهجوم العنيف الذي شتهه الدكتور بن جلول على جمعية العلماء التي اتهمها بأنها هي التي حرّضت على قتل الشيخ كحول، أن الإدارة الفرنسية هي التي كانت توجه تلك الوقائع لتضفي نفاثاً على بذور التفكير في تشكيل حزب وطني يوحد أبرز التيارات الوطنية.

في هذا الإطار يبدو هجوم بن جلول على العلماء جزءاً من خطة أشمل تحرك خطوها الإدارة الفرنسية بمهارة فائقة.

مثلاً: معروف أن علماء الإصلاح الديني كانوا يحاربون البعد والخرافات، ويعتبرون ضمن البعد التي يحاربونها الزردة، التي هي عبارة عن ولائم شعبية ضخمة تدبج فيها الذبائح تقرباً من ولي صالح تدق فيها الطبول ويستغلها بعضهم لارتكاب موبقات، بعنوان أن الولي الصالح الذي تقام له الزردة، يتوسط عند الله، فيغفر للمذنب، مهما كانت الفاحشة التي ارتكبها. لذلك اختار بن جلول «الزردة» مدخلاً لشن هجومه على رجال الإصلاح الديني. وعندما هاجم ابن باديس هذه الفعلة، تصور الناس أن الشيخ ضخم أمراً لا يستحق مثل تلك الأهمية.

وقبل أن نستعرض ملابسات هذه الزردة، يحسن التذكير بأن جمعية العلماء كانت تلتقي مع حركة النواب، التي يقودها مفرنسون، في عدة أمور من بينها انتقاد الخرافات، ومحاربة تقديس الأضرحة والتوجه بطلب الشفاعة إلى الولي الذي مات أو من يمثله من ذريته ورجال زائوته.

وقد كانت الانتخابات البلدية في الثلاثينيات، مناسبة لمعارك انتخابية حادة بين مرشحي الإدارة وبين المترشحين من المتعلمين المستشرقين، وقد كان رجال جمعية العلماء يؤيدون المرشحين الذين يناهسون رجال الإدارة الفرنسية.

هذا الدعم، إذ كان يفضي إلى نجاح رجال لم تكن الإدارة راضية عنهم، جعل الإدارة الاستعمارية تخشى من أن يستمر هذا التحالف بين النواب وجمعية العلماء، أو بين المعربين والمفرنسين المستشرقين، وأن يفضي إلى تكوين جبهة سياسية، تتسبب في اضطرابات تهز ركائز الاستعمار.

وقد تأكدت هذه المخاوف بعد قيام المؤتمر الإسلامي، الذي أصبح من الممكن جداً أن يشكل إطاراً سياسياً تنصهر داخله أهم القوات السياسية.

بل إن هذه المخاوف تضاعفت عندما لاحظ أعوان الإدارة وعيونها أن بعض رجال الإصلاح الديني، مثل الإبراهيمي في تلمسان، ومبارك الميلي والعربي التيسبي في الشرق الجزائري والشيخ المعربي في العاصمة، ينشطون في مهاجمة التباطؤ الفرنسي والمماطلة في تنفيذ مشروع بلوم فيوليت، بل وينتقدونه لأنه لا يتعلق إلا بحدود محدود، ولذلك كانوا يبالغون بزيادة عدد المستفيدين منه. وقد اغتمت الشيخ عبد الحميد بن باديس الاستعدادات التي شرعت فيها الإدارة الفرنسية للاحتفال بمرور قرن على احتلال مدينة قسنطينة، فشن حملة كبيرة ضد تلك الاحتفالات، ودعا إلى مقاطعتها، ونشر في الشهاب نداءً إلى «مسكان قسنطينة المسلمين»، جاء فيه ما يلي:

«إخواني القسنطينيين!

في مثل هذه الأيام منذ قرن، مات أجدادكم المجاهدين المدافعين والفرسان المجهزون في ميدان البطولة والشرف، وطويت صفحة من التاريخ على شهادته بالشجاعة والتضحية للثأب والمغلوب. ومعنى مائة سنة كانت كافية لتسليم تلك الأماس، وضمد تلك الجروح وتقريب السكان المتجارين



ولعل منها أن يدس ل  
منا ونجذب للضر  
ولعل منها أن ييس ل  
منا لنحلب كالبحر  
ولعل منها أن ننا  
طل كي يساورنا الضجر

كذب رأي السياسة وساء فألها، كلا والله لا تسلمنا المماطلة إلى الضجر الذي يقعدنا عن العمل وإنما تدفعنا إلى اليأس الذي يدفعنا إلى المغامرة والتضحية.

أيها الشعب الجزائري... أيها الشعب المسلم... أيها الشعب العربي الأبي... حذار من الذين يمتونك ويخدعونك، حذار من الذين يؤمنونك ويخونونك، حذار من الذين يأتونك بوعي من غير نفسك وضميرك، ومن غير تاريخك وقوميتك، ومن غير دينك وملتك وأبطال دينك وملتك.

استوح الإسلام ثم استوح تاريخك ثم استوح قلبك اعتمد على الله ثم على نفسك، وسلام الله عليك.

إن هذا المقال، إذ يؤكد على أن السياسات المتبعة من طرف الحكومة الفرنسية لن تنجح في دفع الجماهير وطلانها إلى اليأس والاستسلام، صريح كل الصراحة في استخلاص النتيجة الواحدة اللازمة وهي الدعوة إلى الكفاح، ودفع الناس إلى التفكير في وسائل أخرى للمقاومة، بالغ تلك التي انتهجتها الجمعية حتى ذلك الحين، أن التلويح باليأس الذي يدفع «إلى المغامرة والتضحية، بالغ الدلالة في التلويح باليسيل الوحيد الذي يبقى أمام الشعب وقادته، لكي يضعوا حدا للمأزق الذي انتهت إليه القضية.

ولم يكف ابن باديس بذلك، فنشر مقالا آخر في البصائر يوم 20 أوت 1937 بعنوان «دعوة وبيان إلى عموم الشعب المسلم الجزائري الكريمة»، ويشير في هذا المقال إلى المخطط الذي تنفذه الإدارة ضد الجمعية، بواسطة الصحافة الفرنسية من جهة، واعتمادا على تحريك عمالها من جهة ثانية، أولئك العملاء التي كانت تغذي الاختلاف بينهم، على أساس مبدأ... فرق تسد... فقد دفعهم إلى أن يتحالفوا ضد الجمعية، في نفس الوقت الذي عمدت فيه إلى نفض شيء من الحركة في الزوايا الطرفية، وإلى استمالة بعض زعماء حركات النواب.

وتأكدوا لليأس من الأساليب التي اتبعت حتى الآن، يتوجه ابن باديس في هذا المقال، ليس إلى ممثلي التيارات الممثلة في «المؤتمر الإسلامي الجزائري» أو بعض من زعمائها، ولكنه يخاطب جماهير الشعب مباشرة فيؤكد أن «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - كالمسلمين الجزائريين - جبلت على التضال والمقاومة، والصبر والمصابرة وقد صبرت لغشم الحكومة وكيد الاستعمار وجرائده، ولن تزال ثم لن تزال».

ثم يقول: «وقد ولدت الأيام الجارية والظروف الحاضرة مقاومين جدا ينطقون صخرتها برووسهم الحاسرة وينحتون أثلثها بأظفارهم المتأكلة ويضربون على نغمات من تقدمهم من أعداء الأمة والجمعية ويخمدون عن علم أو غير علم، مقاصد من يحاربون في الجمعية روح الإسلام والعروبة، فهناك في عمالة قسنطينة وهنا بعمالة الجزائر من يعملون لرفع أنفسهم بالخط من الجمعية ويمهون على الأمة بما يقولونه عليها وعلى رجالها فمرة يربطون الجمعية بحزب من الأحزاب الأجنبية، والجمعية لا تنتمي لحزب ولا تعادي حزبا إلا من حارب الإسلام والعروبة فإنها تكون عليه - كائنا من كان - بلاء وحربا، ومرة يصمونها بالتدخل في السياسة والجمعية ما تدخلت في سياسة الكراسي والنيابات والمكاتب والممرات... وإنما وقفت الجمعية في مؤتمر الأمة تضع مطالب الدين واللغة وشروط

المحافظة على الجنسية والشخصية. ومثلت ذلك كله بلسانها وهيتها أسدق تمثيل.

يا هؤلاء...! إن الجمعية ليست عاجزة عن مقاومتكم وإظهار خملتكم وكشف باطلكم. ولكنها تلم ما تحتاج إليه الأمة اليوم من اجتماع الكلمة وعدم الفرقة وتوحيد الصفوف، فلماذا تركتكم وتركتكم راجية لكم أن تدركوا حقيقة الموقف فتعملوا بما يقتضيه.

أيها الشعب الجزائري الكريمة...!

«قد بينت لك جمعيتك حقيقة الموقف وحرجه، وكشفت لك شيئا مما تمناهه أنت وتمناه هي من الأقراب والبعداء وهي تدعوك إلى التبصر والتثبت والاتحاد والتجمع والتنبه والتيقظ، وتحثك على الاعتماد على الله وحده، ثم على نفسك والصادقين من أبنائك، وما الصادقون إلا الذين يحافظون بأقوالهم وأعمالهم ومواقفهم على إسلامك وعروبك وجمع مقوماتك، يناضلون بالنفس والنفس عن جميع حقوقك، وهم فيك اليوم إن شاء الله كثيرون، وسيكونون أكثر والله أكبر».

ثم يعود إلى الموضوع يوم 7 سبتمبر 1937 بكتابة مقال دين في السياسة القديمة، فيقول: «ولقد كان صاحب هذه المجلة - ولا يزال - يرى أنه لا يحق للأمة أن تستمر على السياسة القديمة سياسة المطالبة والانتظار، إذ قد ظهرت التوايا جلية واضحة، وتحقق الناس أجمعون أن يعود هذه الحكومة كعود الحكومة السالفة، إنما هي من فصيلة العود التي أمطرت القطر الجزائري منذ أيام الامبراطورية إلى الآن: وعود هي السراب بعينه».

ومن أجل ذلك، ورغبة في توير الأذهان وتوجيه آراء اللجنة التنفيذية نحو السياسة الوحيدة التي نرى أنها ربما أحدثت الأثر المطلوب بعد حين، حرر صاحب هذه المجلة ونشر فوق أغلب أعمدة الصحف الجزائرية والتونسية هذا النداء.

ثم يورد نص النداء كما يلي:

نداء إلى الأمة الجزائرية ونوابها

أيها الأمة الكريمة. أيها النواب الكرام! اليوم وقد أيسنا من غيرنا يجب أن نثق بأنفسنا. اليوم وقد تجوهلت قيمتنا يجب أن نعرف نحن قيمتنا.

اليوم وقد خرست الأفواه عن إجابة مطالبنا يجب أن نقول نحن كلمتنا.

اليوم وقد أتحد ماضي الاستعمار وحاضره علينا، يجب أن نتحد مستقبلنا.

أيها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام!

بمضهر الوعد كله في وزارة الحرية من السنة الماضية - قال لنا دالايه وزير الحرية، رئيس الحزب الجمهوري الراديكالي والراديكالي سوساليست: أقول لكل بكل صراحة «إن أضرار كل المعارضة في إعطائكم النيابة البرلمانية مادمت على حالتكم الشخصية الإسلامية، من ذلك الحين تحققت أن هذه النيابة البرلمانية ميتوس منها، وقد أشرت إلى هذا فيما كتبه عن الوعد بعد رجوعنا في مجلة «الشهاب» وما هي الأيام جاءت محققة ذلك اليأس. وما هي الجزائر اليوم تشهد بلسان حالها قول الشاعر العربي:

أزمت ياسا مييتا من نواكك  
ولن ترى طاردا للحر كاليبس

أيها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام! حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى تترامى على أبواب برلمان أمة ترى أو ترى أكثريتها ذلك كثيرا عليها...! ويسمعا كثير منها في شخصيتها الإسلامية ما يمس كرامتها ويجرح أعز شيء لدينا. لنندع الأمة الفرنسية ترى رأيها في برلمانها ولتتسك - عن إيمان وأمل - بشخصيتها ولتطالب بالمشاورة المساواة في جميع الحقوق في وطننا وأولها المساواة في المجالس النيابية.

أيها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام! قررنا يوم 29 أوت وبعد قرار المؤتمر وجمعيات النواب عدم التعاون في النيابة بجميع أنواعها، قررنا أن لا نعودا بدون مساواة إليها. قررنا أنه يجب أن يكون كل مسلم جزائري بلغ سن الانتخاب منتخبا وأن يكون عدد نواب المسلمين الجزائريين في كل مجلس مثل عدد الفرنسيين.

كونوا جبهة متحدة لا تكون المفاهمة إلا معها على هذا الأصل.

أيها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام! تناسوا الحزازات، امحقوا الشخصيات، برهنوا للعالم أنكم أمة تستحق الحياة، برهنوا لفرنسا أنكم كما وقفت معها في الحرب صفاً واحدا تدافعون عنها، تقفون في السلم صفاً واحدا تدافعون الأتانيين منها الذين هم مثل أعدائنا.

هذا وأنا كعسلم جزائري قد أدبت الواجب الثاني من واجباتي في الوقت الحاضر والله المستعان على القيام ببعيتها...!

بنيت...

تحت الرعاية السامية للسيد والي ولاية قسنطينة  
المعرض الأول للاتصالات الهاتفية للشرق الجزائري  
1er Carrefour de la Télécommunication de l'Est  
Constantine du 20 au 29 Décembre 2005  
Site ENADITEX Zone d'activité Palma - Constantine

avec la collaboration de  
Organisé par  
CCIR